الباب الثالث

سياسة الأمويين نحو دول المغرب منذ وفاة الحكم المستنصر حتى سقوط الخلافة الأموية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

سياسة الأمويين نحو دول المغرب, في عصر هشام المؤيد بالله

(366 هـ ـ 399 / 976 ـ 1008)

عهد الحكم المستنصر بالله بولاية العهد ، لأبنه أبى الوليد هشام وهو طفل صغير ، لا يتجاوز العاشرة من عمره ، وذلك سنة 365 هـ /975 م ، أي قبل وفاته بسنة واحدة ، وأخذت له البيعة من الخاصة والعامة في مدينة « قرطبة » وسائر كور شبه جزيرة الأندلس ، والمناطق الأخرى المنضوية تحت سلطان الخلافة الأندلسية ، فيما وراء المضيق ببلاد المغرب (1) .

وقد احتاط الحَكَم لهذا الأمر قبل وفاته ، وكأنه يعرف مسبقا ما ستؤول إليه الخلافة بعد وفاته ، فحاول أن يعمل ما يمكن عمله ، لضمان إستمرارها في يد ولده هشام المؤيد بالله ، فجمع كل من يثق به من كبار رجال دولته ، وكتب له العهد أمامهم وأشهدهم على ذلك ، ولم يكتف بهذا بل أخذ منهم العهود والمواثيق ، لمؤازرة إبنه الخليفة الصغير ، والإخلاص له ، ومساعدته في تيسير شؤون الدولة .

لكن هذه العهود والمواثيق ، ضرب بها عرض الحائط ، بعد وفاة الحكم مباشرة سنة 366 هـ /976 م ، بظهور بوادر الخلاف والإنشقاق في صفوف رجال الدولة ، فانقسموا الى فئتين :

فئة تتكون من العسكريين ، وأخرى من المدنيين ، وكل واحدة لها وجهة نظرها في هذا الموضوع ، تدفعها في ذلك مآربها وأطماعها الشخصية . .

---

(1) ابن عذارى : البيان المغرب جـ2 ص 249 .

وكان العسكريون وهم الصقالبة ورجال الجيش والحرس الخليفي ، أكثر جمعا وأحد شوكة من المدنيين ، يتزعمهم « فائق » المعروف بالنظامي صاحب البرد والطراز و« جؤذر» صاحب الصاغة والبيازرة (1) .

أما المدنيون وعلى رأسهم رئيس الوزراء الحاجب ، جعفر بن عثمان المصحفي ، فقد تمسكوا بوصية الحكم وحرصوا على تنفيذها ، لعل ذلك يخدم مآربهم وأطماعهم ، .وهو الإستئثار بزمام الأمور في الدولة .

وكادت أن تدور رحى حرب أهلية دامية خطيرة في مدينة « قرطبة » ، بين الفئتين المتنافستين ، لو لا أن تدارك الموقف بسرعة ، جعفر المصحفي وأصحابه الوزراء ، فأنهوا هذا السباق بتدبير مؤامرة أودت بحياة مرشح العسكريين ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، قام بتنفيذها شخصية جريئة وطموحة هو محمد بن أبي عامر المعافري اليمني .

وبذلك رجحت كفة الوزراء وخلا الجو لهشام من المنافسين على كرسي الخلافة (2).

غير أن الخليفة هشام لم يكن له في السلطان شيء ، لا من قريب ولا من بعيد لصغر سنه ، فقد استحوذت على زمام الأمور في بادىء الأمر أمه السيدة « صبح البشكنسية » ، التي بدأت حياتها في القصر جارية مغنية محظية عند الحكم (3) ، ولم تلبث أن زادت عنده حظوة عندما انجبت له هشاما ، وأصبحت بذلك أم ولد ، ومنذ ذلك الحين قوى نفوذها في القصر ، ولا سيما في الفترة التي كان الحكم فيها مريضا ، فأتيح لها أن تكون هي المدبر في شؤون الدولة .

وسوف نرى كيف ظهرت عن طريقها ، شخصية محمد بن أبي عامر على مسرح السياسة ، وكيف استطاع بذكائه المتوقد ودهائه وحزمه ، أن يسيطر على الخليفة وشؤون الخلافة ، وعلى أمه السيدة صبح نفسها .

على أن موضوع الأهمية هنا ، هو أن تاريخ الخلافة الأندلسية في الفترة ما بين سنة 366 هـ /976 م ونهاية القرن الرابع الهجري 399 هـ / 1008 م ، ما هو الا تاريخ

---

(1) ابن عذارى : البيان ، جـ2 ص 259

(2) ابن عذارى : البيان ، جـ2 ص 261 ـ المقرى : نفح الطيب ، ـ جـ1 ص 373 .

(3) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ2 ص 253

أسرة جديدة تمكنت من فرض وجودها ، والإستبداد بالحكم في قرطبة دون اصحابها الشرعيين ، هي الأسرة « العامرية » المتمثلة في محمد بن أبي عامر وولديه من بعده عبد الملك المظفر وعبد الرحمن الناصر المعروف بشنجول ، وهي أسرة ليست من البيت الحاكم ، وإنما ساعدها حسن الطالع أن تصل الى السلطة بفضل موهبة المؤسس الأول محمد بن أبي عامر وطموحه ، اذ أستطاع أن يستولي على أمور الدولة ، وأن يتصرف فيها بيد من حديد ، فأسس بذلك دولة عامرية داخل الإطار الشرعي للخلافة الأموية في الأندلس امتدت طيلة أيامه ، وأيام ولديه من بعده نحو ثلاثه وثلاثين سنة ، حتى أن المؤرخين أرخوا لهذه الفترة تحت عنوان « تاريخ الدولة العامرية » (1) .

ظهور شخصية محمد بن أبي عامر :

وقبل أن أنتقل بالحديث الى صلب الموضوع ، فضلت أن أقف قليلا عند نشأة هذه الدولة ، ومؤسسها محمد بن أبي عامر ، لأنه هو المحور الذي ستدور حوله الأحداث، وهو المدبر والصانع للسياسة الأندلسية في البلاد المغربية ، خلال عصر الخليفة هشام المؤيد بالله .

ومحمد بن أبي عامر هذا ينحدر من أسرة عربية يمنية ، دخل جده عبد الملك المعافرى أرض الأندلس في جيش طارق بن زياد سنة 92 هـ /710 م ، (2) وأبدى ضروبا من الشجاعة والإقدام في هذا الفتح ، ويرجع إليه الفضل في الإستيلاء على مدينة « قرطاجنة » شرقي الأندلس ، وأستقر بعد ذلك بنو عامر في مدينة « طرش » Torrox الواقعة على نهر يسمى وادي آره oudi Aia في شمال شرق الجزيرة الخضراء (3) . وقد برز منهم القضاة والولاة والعلماء ، ولهذا نشأ محمد بن أبي عامر نشأة علمية حسنة .

---

(1) وضع المؤرخ القرطبي المعاصر أبو مروان بن حيان كتابة « البطشة الكبرى » وخصص جزءا منه لتاريخ هذه الفترة تحت عنوان أخبار الدولة العامرية أو المآثر العامرية . أنظر كتاب ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج 1 ص 269 المقرى : نفح الطيب ، ج 1 ص 376 ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 83 .

(2) ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 257 ـ المقرى : نفح الطيب ، ج 1 ص 376

(3) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 72 .

انتقل ابن أبي عامر إلى قرطبة يطلب فيها العلم والمعرفة ، فدرس الحديث وقرأ اللغة العربية على يد كبار شيوخها من أمثال : أبي علي القالي البغدادي وأبي بكر بن القوطية ، وأبي بكر بن معاوية القرشي وغيرهم من شيوخ المسجد الجامع (1) .

وعندما تم تعليمه اقتفى أثر عمومته وخؤولته ، الذين كانوا يشتغلون بمهنة القضاء (2) ثم فتح دكانا عند باب القصر ، يكتب فيه لمن يعن له من الخدم والمرافقين للقصر وعامة الناس الشكاوي والعرائض والالتماسات ، وسرعان مانبغ في هذه المهنة ، فاستهوته قلوب الناس ، وذاع صيته بينهم وبخاصه عند خدم القصر وغلمانه ، لِمَا كان يتمتع به من ذكاء ونشاط وقوة الشخصية مع مهارة في معاملة الناس ، ولم يلبث أن سمعت به السيدة « صبح » أم هشام المؤيد ، عن طريق من كان يأنس إليه من فتيان قصر الخليفة (3) .

وكانت السيدة صبح في ذلك الحين في حاجة الى كاتب يدير شؤون أموالها وضياعها ، فاسندت له هذه المهمة ، فلم يتأخر عن عمله وواجباته وكان عند حسن ظنها ، إذ أظهر كفاءة ممتازة وقدرة فائقة في وظيفته ، حتى جذب أنظار السيدة صبح إليه ، ولم تخف إعجابها به ورضاها عنه ، بل وسرعان ما تحول ذلك الإعجاب الى « حب » فاستهوته وغلب على قلبها ، بما يقدم لها من صنوف التحف الثمينة ومختلف الهدايا الجميلة ، لدرجة أن الخليفة الحكم المستنصر بالله صرح بذلك علنا أمام خواصه قائلا : « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » (4) .

ومنذ ذلك الوقت أخذت السيدة صبح تتوسط له عند الخليفة الحكم وتذكره بمناقبه ، وتنوه بأعماله وسلوكه ، حتى ولاه قضاء بعض النواحي بكورة رية ثم رقاه إلى الإشراف على أموال الزكاة والمواريث بإشبيلية ، وادارة الشرطة الوسطى والعليا وأمانة السكة (5) .

---

(1) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 257

(2) نفس المصدر ، جـ 2 ص 257

(3) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع المجلد الأول ، ص 43 ، القاهرة 1945 م ـ المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 376 .

(4) المقرى : نفح الطيب ، جـ 4 ص 87 ، جـ 1 ص 376 ـ وانظر أيضا ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 252 .

(5) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ 2 ص 251 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ، ص 68 . ابن حيان : المقتبس ، ص 123 .

وما انفكت كفاءته تظهر ، ومازال كذلك الخليفة الحكم يرقيه ويقلده الوظيفة تلو الأخرى ، حيت جعلهُ وكيلا على أبنه وولى عهده هشام ، فزاد رفعة وقدرا عند الخاصة بولي العهد ومكانه من السيدة والدته ، فأحتاج الناس إليه وغشوا بابه يلتمسون منه الوساطة وقضاء الحاجة وفي ذلك يقول إبن عذارى : « فاحتاج الناس إليه وغشوا بابه فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة اسعاف ، وكرم لقاء وسهولة حجاب .. » (1) .

استمر الخليفة الحكم في تقليد إبن أبي عامر الأمانات والخطط وترقيته سلم الوظائف إلى أن وصل إلى مرتبة الوزارة آخر أيامه ، وسبقت الإشارة الى أنه وفد عدة مرات الى بلاد المغرب في مهام كثيرة ، منها حمل الأموال إلى القواد الأندلسيين المرابطين هناك ،والى حلفاء الدولة من المغاربة ، ومطالعة أحوال الجند ، ومراقبة تصرفات القواد في تلك المنطقة ، وأخيراً عين قاضي القضاة بها سنة 362 هـ / 972 م (2).

ولما توفي الحكم وحدثت أزمة توريث الخلافة بين أبناء البيت الحاكم ، كان المنصور هو القطب الذي تدور حوله الأحداث السياسية ، والعسكرية ، فمنذ ذلك الحين بدأ إبن أبي عامر عهداً جديداً يمارس حياته كرجل سياسي ودبلوماسي محنك ، وأظهر خبرة ولباقة في إدارة شؤون الدولة وكياسة في معاملة الأصدقاء .

استبداد محمد بن أبي عامر بالسلطة والتخلص من منافسيه :

أخذ محمد بن أبي عامر يشق طريقه قائداً عسكريا ورجلاً سياسياً بإرادة قوية وسعى لايكل . منتهزا في ذلك الفرص المواتية لنشر نفوذه وتوسيع سلطانه ، وفرض هيبته على حساب زملائه من كبار رجال الدولة ، يضرب بعضهم ببعض واستطاع بدهائه أن يمكر بهم وأن يوقع بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً ، وهكذا تخلص ممن كان يخشاهم الواحد تلو الآخر ، غير مبال بضمير أو أخلاق في سبيل الوصول إلى أهدافه لقد عمل

---

(1) ابن عذارى : البيان ، جـ2 ص 258 .

(2) ابن حيان : المقتبس ، ص 123

بنظرية ميكيا فلى ، (في القرن الخامس عشر) قبل أن يوجد ، وهي سياسة الغاية تبرر الوسيلة (1) .

استهل إبن أبي عامر سياسته هذه بنكبة الصقالبة ، فقد استغل الخصومة التي كانت بينهم وبين الحاجب جعفر المصحفي ، ووجهها لصالحه ، واستعان به في نكبتهم وأخراجهم من القصر ، وكان عددهم نحو ثمانمائة صقلبي ، وبذلك قصم إبن أبي عامر أول عروة من عرى الخلافة (2) .

ثم أنتقل بعد ذلك الى خصم آخر،يُعدُّ من أكبر منافسيه على السلطة وهو الحاجب جعفر المصحفي ، وقد مهد له بالتقرب الى ذى الوزارتين والسيفين القائد غالب بن عبد الرحمن ، صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى ، بصفته أكبر القواد وأشجعهم آنذاك ، فأرتبط معه برباط المصاهرة حيث تزوج من ابنته « أسماء » ، وكان يوم زواجه بها أعظم عرس في الأندلس حسب تعبير المقرى (3) .

ومنذ ذلك الحين،عمد ابن أبي عامر الى مصانعته ومظاهرته وتأييده في خلافه مع المصحفي ، ولم يكتف بهذا بل بالغ أيضا في خدمته وأكرامه داخل القصر عند السيدة « صبح » أم الخليفة حتى أكتسب محبته وثقته وتم له ما أراد (4) .

كما قام بالسعاية ضد المصحفي لدى الخليفة هشام المؤيد ، واوغر عليه صدره وتمكن من إصدار قرار منه بعزل الحاجب جعفر من مناصبه ، والقبض عليه ومحاسبته وزج به في غياهب السجون عدة سنوات ولم ينفع الحاجب جعفر المصحفي كثرة توسلاته،التي كان يبعث بها الى محمد بن أبي عامر من داخل سجن الزهراء ، بواسطة القصائد الشعرية الكثيرة التي،كان ينظمها خصيصا لهذا الغرض . .

هبني أسأت فأين العفو والكرم ... إذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي إليه أما ... ترثى لشيخ نعاه عندك القلم

---

(1) د . أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 244 ـ راجع أيضا كتاب الاستاذ المرحوم عبد الحميد العبادى : المجمل في تاريخ الأندلس ، ص 146 .

(2) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 259 ـ المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 376 .

(3) المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 376 ـ أنظر أيضا : ابن عذارى البيان ، جـ 2 ص 267 .

(4) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 265

يـا لغت في السخـط فاصفح صفح مقدر ان الملوك اذا ما أسترحموا رحموا (1)

لكن ابن أبي عامر لم يرق لحاله ، ولم يصغ لتوسلاته ، بل زاده ذلك قسوة وأصرارا على إذلاله وإهانته ، وأمر شاعره الخاص،عبد الملك بن أدريس،أن يجيبه عن أبياته فقال :

الآن يا جاهلا زلت بك القـــــدم تبغى التكرم لما فاتك الكـــــرم
أغريت بي ملكا لـــولا تتبتـــــه ما جاز لي عنـــده نطق ولا كـــرم
فايأس من العيش اذ قد صرت في طبعه ان الملوك اذا ما استنقموا نقمـــوا
نفسي اذا سخطت ليست براضيـــة ولو تشفع فيك العرب والعجم (2)

وأبقاه محمد بن أبي عامر في السجن المطبق بمدينة الزهراء الى أن توفي وقيل قتل خنقا سنة 372 هـ / 982 م (3) .

ولم يبق أمامه ما يخشاه سوى المنافس الخطير الثالث ، صهره شيخ الموالي « غالب » ، الذي فطن لنواياه وأهدافه ، فأخذ يحنق عليه لحجره على الخليفة هشام ، وجمعه السلطة في يده والاستبداد بها ، ولاحظ ذلك إبن الخطيب بقوله : « ... لما رآه يطوي الدولة طيا وستيها خلقا جديدا . منسوبا إليه معروفا باصطناعه ، فاضمر له الخديعة ورجاعنه الاراحة .. » (4) .

ولكن غالب لم يظهر له ذلك ، وظل يترصد له في سرية تامة ، وينتظر بفارغ الصبر اليوم المناسب لتصفية حسابه معه ، وسنحت الفرصة له يوم التقى به بعد الغزوة التي قام بها إبن أبي عامر على قلعة أنتيسة Antieza (غربي مدينة سالم بنحو 40كم) من الثغر حيث يقيم القائد،غالب فدعاه الى وليمة وأنفرد به،وأخذ في عتابه ، ثم كسر عليه غالب بسيفه ، وكاد أن يجهز عليه لولا خفة جواد إبن أبي عامر وسرعته ، فأطلق سيقانه للريح وخلص صاحبه من موت محقق (5) .

---

(1) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ 1 ص 259 ـ المقرى : المصدر السابق ، جـ 1 ص 385 .

(2) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ 1 ص 267 ـ المقرى : المصدر السابق ، جـ 1 ص 385 .

(3) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ 1 ص 267 ـ المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 385 ؛ راجع : ابن فاقان : مطمح الانفس ، ص 8 .

(4) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 72

(5) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 278

حينئذ أخذ ابن أبي عامر يحسب له ألف حساب ، ويعمل بكل ما في وسعه للقضاء على المنافس الثالث ، الا أنه لم يقدم على مواجهته مواجهة مباشرة بنفسه لأنه يعلم أن القضاء على هذا القائد ، لا يمكن أن يتم بنفس السهولة ، التي تم بها التخلص من جعفر المصحفي ، لأن غالبا كان يتفوق عليه في الفروسية ويبزه شجاعة واقداما ، لذلك آثر أن يستعين عليه بقائد ، لا يقل عنه شجاعة وفروسية ، الا وهو جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، الذي استقدمه من المغرب مع ستمائة من المقاتلين المغاربة ، ليعضد به ساعده ، ويتقوى على خصمه غالب (1) .

ورماه أيضا بقائد الثغر الأعلى « أبي الأحوص » معن بن عبد العزيز التجيبي « وحسن بن أحمد بن عبد الودود » في معظم أهل الثغور (2) علاوة عن جيش الحضرة ، الذي يقوده محمد بن أبي عامر نفسه ، وأمام هذه الحشود الهائلة ، لم يجد القائد غالب بدا من التحالف مع بعض ملوك الدول المسيحية الاسبانية في الشمال والإستعانة بهم (3)

وفي سنة 371 هـ / 981 م ، وقعت المعركة الفاصلة بين الطرفين ، لاقي خلالها محمد بن أبي عامر عناء كبيرا ، من جرّاء ما أظهره غالب من بطولة وشجاعة رغم كبر سنه ، وكادت كفته أن ترجح ، لولا أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، حيث سقط غالب من فوق صهوة فرسه ميتا ، فتفرق جيشه ونزلت به الهزيمة (4) .

ولم يلبث إبن أبي عامر ، ان دبر مكيدة لقتل جعفر بن علي بن حمدون الإندلسي ، الذي ساعده في حربه ضد غالب ، وواطأ إبن أبي عامر أبا الاحوص معنا بن عبد العزيز بن محمد التجيبي ، على قتل القائدجعفر ، فدعاه الى وليمة وقدم له الشراب فافرط جعفر فيه ، وارصد له من قتلوه وهو عائد بالليل الى منزله ، في قصر العقاب سنة 372 هـ / 982 م وهو ثمل ، وتظاهر محمد بن أبي عامر بالحزن عليه (5) ، ثم قتل بعد ذلك أبا الاحوص وأنفرد وحده بالحكم (6) .

---

(1) ابن عذاري : البيان ، جـ 2 ص 278 .

(2) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 72

(3) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ 2 ص 279 ـ ابن الخطيب : المصدر السابق ، القسم الثاني ص 72 .

(4) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 279 ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 72 .

(5) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ 1 ص 306 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ 2 ص 280 ـ 281 .

(6) ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ 2 ص 279 .

وبهذه السياسة الجريئة الحازمة، تمكن محمد بن أبي عامر من منازلة معظم منافسيه على السلطة والقضاء عليهم ، وخلا له بذلك الجو للاستقلال بالملك والإنفراد به دون اصحابه الشرعيين ، فتغلب على الخليفة هشام وحجره في القصر ، وشدد الحراسة على بابه بترتيب الحراس والبوابين ، وأمرهم بملازمة الحراسة ليلا نهارا ، ومراقبة تحركات من بداخل القصر سرا وجهارا ، حتى أصبح الخليفة محجورا مهجورا لا تراه الخواص ولا العوام (1) .

ويصف إبن الابار الحالة التي آل اليها الخليفة هشام المؤيد بالله ، بقوله : « ليس له من الأمر غير الإسم خاصة فما ظنك برجاله ومواليه الذين كان يرهب منهم وبهم يحترس » (2) .

فقد جرده من كل شيء الا من الاسم الخليفي ، والدعاء له على المنابر وكتب اسمه على السكة والطرز وفي ذلك قال أحد المؤرخين : « ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب إسمه على السكة والطرز .. (3) » .

وتسمى بالحاجب المنصور سنة 371 هـ /981 م ، وأمر بأن يحيا بتحية الملوك ، وأنفذ الكتب والمخاطبات والأوامر بإسمه ، ولم يقف عند هذا الحد، بل أمر العمال في مختلف المقاطعات والاقاليم التابعة للدولة الأموية في الأندلس ، بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة هشام المؤيد بالله (4) .

والظاهر أن المنصور بن أبي عامر ، أحس بكثرة حساده وأعدائه ، فخاف على نفسه من دخول القصر الخليفي بقرطبة ، فقام ببناء مدينة لنفسه وحاشيته ، أطلق عليها إسم « الزاهرة » ، انتقل اليها سنة 370 هـ /980 م ، بأهله وذويه وأنزل بها خاصته وعامته ، وشحنها بجميع أنواع الأسلحة والجند والأموال ، والأمتعة وأتخذ فيها الدواوين والأعمال ، بدلا من مدينة « الزهراء » (5) .

---

(1) نفس المصدر ، ج 2 ص 276 .

(2) الحلة السيراء : ج 1 ص 269

(3) المقرى : نفح الطيب ، ج 1 ص 374

(4) نفس المصدر والصفحة .

(5) المقرى : نفح الطيب ، ج 2 ص 113

وخاطب المنصور عمال الأقاليم في الأندلس والمغرب بأمرهم بتوجيه المراسلات والجبايات والأموال الى مدينته الجديدة ، وحذرهم من الذهاب الى قصر الخليفة أو الإتصال به .

ورغم إنشغال المنصور بن أبي عامر ، بتوطيد أركان دولته الناشئة واستئثاره بالسلطة ، فلم ينصرف عن الجهاد ، وتنظيم الصوائف والشواتي ، كل سنة الى المناطق الشمالية ، حيث توجد الممالك المسيحية المتاخمة لحدود دولته ، وتذكر بعض المصادر العربية ، أنه قام بنحو سبع وخمسين غزوة قادها جميعا بنفسه ، وقد زادته هذه الغزوات الناجحة المظفره مفخرة وعزة وشرفا وهيبة ، سواء في نظر رعيته أو أعدائه ، فتوغل في بلاد جليقية غارسا في نفوس أهلها الذعر والفزع ، وكان المنصور لا يعود من غزوة إلا ويستعد لأخرى ، ولم ينهزم له فيها جيش ولم تنكس له راية ، فأحبته الناس واستمالت إليه قلوبهم (1) .

اعتماد المنصور على المغاربة في بناء قواته :

لاشك أن السياسة العنيفة والجريئة ، التي أتبعها الحاجب المنصور ابن أبي عامر . كان يعتمد في تطبيقها على أيد قويه ، ورجال شجعان منحوه كل الإخلاص ، كما منحهم هو كل التكريم فتقوى بهم وعلا شأنهم به ، ويبدو أن معظم هؤلاء الرجال الشجعان من المغاربة ، فهناك ما يشير الى أن المنصور اتجه بانظاره الى البلاد المغربية ، واستقدم كثيرا من أبنائها وكوَّن منهم جيشه الجديد ، وأصبحوا هم الدعامة الأولى في بناء دولته ونصرته ، وان معظم أفراد هذا الجيش من قبائل زناتة ومكناسة وبني برزال وصنهاجة وأزداجة ، وغيرهم من أبناء المغرب الذين أمَّوا الأندلس ، وأسرعوا الى الانخراط في صفوف قواته ، عندما أنتشرت أخبار كرمة معهم وأحسانه اليهم ، فتحركت همة الكثير منهم ، ولحقوا باخوانهم القدماء هناك (2) .

وكانت الدفعة الأولى من المتطوعين المغاربة في عصر المنصور، والتي عبرت المضيق الى الأندلس هي تلك التي اجتازت مع جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي عامله على

---

(1) المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 376 ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 65 .

(2) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 75 ـ المقرى : نفح الطيب ، جـ 1 ص 373 .

المغرب سنة 367 هـ/ 987 م ، لتغذي جيشه بالمقاتلين . وكان عددها نحو ستمائة فارس (1) .

وقد اتفق أن تحرك في هذه الفترة ، نائب الفواطم في إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي ، في حملته المشهورة على المغرب الأقصى ، والتي أكتسح فيها أمامة زناتة وأجفلها الى مدينة سبتة ، قاعدة الخلافة الأندلسية في المغرب .

فاستغل المنصور هذه الحادثة ، وبعث الى رجال زناتة يشجعهم على الهجرة والاقدام إليه ، والظاهر أن أعوانه قد أشاروا عليه بذلك وقالوا له : « قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة وإعتقاد المنة عليهم ، فارسل اليهم يأتوك سراعا فليجد احسانك اليهم مكانا » (2) .

ومازال المنصور يسعى في استقدامهم ، ويبذل الاحسان اليهم ، والتوسعة عليهم وما زالوا هم أيضا يتثالون عليه انثيا لا فاقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير وأيدوه تأييدا مطلقا ولبوا نداءه ، وظلوا يتلاحقون وفرسانهم يتواترون ، حتى أن الرجل منهم كان يجيىء الى الأندلس : « بلباس الخلق الأعجب فيبذل بلباس الخز الطرازي وغيره ، ويركب الجواد العتيق ويسكن القصر... حتى صاروا أكثر الأجناد في الأندلس » (3) .

فحسنت بذلك أحوالهم ، وكثرت أموالهم ، وصاروا أظهر الجند نعمة ، واعلى منزلة ، وأصبحت فيهم رئاسة الجيوش وقيادة المعارك ، ولم يزالوا خاصة المنصور وبطانته . فقدم رجالهم وأخر رجال العرب ، واسقطهم عن مراتبهم ، لئلا ينافسوه وينازعوه على السلطة ، ويتم له الانفراد بها من جهة ، وربما أيضا لما رآه من أن العرب أصبحوا طبقة أرستقراطية نفذت مزاياها الحربية من جهة أخرى (4) .

وكما ساعد المنصور بن أبي عامر وشجعه ، على استخدام هؤلاء المغاربة في قواته ، معرفته بطبائعهم ، التي لم تكن غريبة عنه ، فقد سبق له أن عاش في بلادهم وبين

---

(1) ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 279 ـ مفاخر البربر ، ص 15

(2) مفاخر البربر ، ص 17 ـ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ص 293

(3) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ص 294/293

(4) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ص 379

قبائلهم ، عدة سنوات قاضيا يرعى شؤون الناس ، ويحكم في مظالمهم ، كما عمل أمينا خاصا للخليفة الحكم المستنصر بالله هناك .

ولكي يزيد المنصور بن أبي عامر من أضعاف العصبية القبلية ، سواء بين المغاربة أو العرب ، قام بتنظيم الجيش الى فرق مختلفة ، من كل نوع بحيث جزأ القبائل وجعل المجموعة الواحدة من الجند ، عبارة عن فرق من كل قبيلة ، ليخفف ويضعف من حدة الفتن القائمة على هذه العصبية القبلية ، وبالتالي يسهل عليه التحكم فيه وقيادته .

أطلق المنصور على هذا الجيش المغربي الجديد إسم الحضرة ، أي جند العاصمة يخضعون لرئاسته وقيادته ، ولا يطيعون غيره ، وبهذا يكون الجيش الأندلسي في هذه الفترة مقسما الى قسمين :

قسم يديره الحاجب المنصور بنفسه ، وهو جيش الحضرة ، والقسم الثاني يدير أمره القائد غالب صاحب مدينة « سالم » ويسمى جيش الثغر (1) .

سياسة المنصور المغربية :

أما عن سياسة المنصور بن أبي عامر المغربية ، فيبدو أنه رغم مشاغله الكثيرة بالشؤون الداخلية للبلاد ، وتنفيذ خططه العديدة في سبيل القضاء على الخصوم والمنافسين ، لبناء صرح دولة عامرية قوية ، فضلا عن الصوائف والشواتي ، التي كان يقودها بنفسه للجهاد في كل سنة ، فإنه أيضا كان يهتم اهتماما خاصا ، ببلاد المغرب الذي يعتبر المصدر الرئيسي لجيوشه وقواته .

فقد سار المنصور هو الآخر ، على نفس السياسة التي سار عليها الناصر والمستنصر من قبل ، والتي تقوم على ضرورة اصطناع أمراء المغرب ورؤساء قبائله ، والتدخل المسلح المباشر في المغرب ، اذا أقتضى الأمر لذلك ، حتى يحافظ على النفوذ الأموي فيه من جهة ، ولتأمين حدود دولته الجنوبية من جهة ثانية .

والظاهر أن المنصور بن أبي عامر ، قد اقتصر في أول عهده على ضبط مدينة سبتة وما والاها ، بالعمال والجيوش الأندلسية ، وقلدها كبار رجال الدولة من أرباب السيوف

---

(1) ابن عذارى : البيان ، جـ 2 ص 265

والأقلام ، وعوَّل على ضبط ما وراء ذلك من البلاد المغربية على أبنائها من أمراء زناتة (مغراوة وبني يفرن) ، ومكناسة وغيرهم من الموالين للدولة الأموية في الأندلس ، وشرح ذلك صاحب كتاب مفاخر البربر بقوله : « وأقتصر محمد لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما والاها ، بجند السلطان الأندلسي وقلدها كبار رجاله ، من أصحاب السيوف والأقلام ، وعوَّل في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناتة ، وتعهدهم بالجوائز والخلع ، وأكرم وفودهم ببابه ، وأثبت من رغب منهم الاثبات في ديوانه .. » (1) .

وصادف آنذاك أن ظهرت قوة آل خزر المغراويين الزناتيين ، بحيث امتد سلطانهم على أغلب أعمال المغربين الأوسط والأقصى ، بعد أن تمكنوا من كسح مكناسة وطردها من مدينة « فاس » ، وغيرها من المناطق التابعة لهم ، وحلوا محلهم (2). ومنذ ذلك الوقت أخذ المنصور بن أبي عامر يصطنع زعماء مغراوة ويتعهدهم بألطافه ، وخلعه وأمواله ، ويكرم وفودهم ويثبت جنودهم في ديوانه ، وشجعهم على ضبط أمور المغرب وأطلق يدهم فيه . ولعل من نتائج هذه السياسة ، أن قام خزرون بن فلفل ، أحد أمراء بني خزر المغراويين المرتسمين بولاية بني أمية في الأندلس ، بالسير على رأس جيش زناتي كبير نحو مدينة سجلماسة (تافيلالت حاليا) لمتابعة طرد المكناسيين من أعمالهم ، والإستلاء عليها ، ولا يستبعد أن يكون المنصور وراء ذلك ، لأنه معروف بهذه السياسة ، فبرز إليه أبو محمد المعتز بالله المدراري أمير المدينة ، فهزمه خزرون وقتله ، وأستولى على المدينة وعلى ذخيرتها من الأموال والسلاح ، ومحا بذلك أثر دولة بني مدرار السجلماسيين منها ، وأقام الدعوة بها للخليفة هشام المؤيد بالله ، وهي أول دعوة أقيمت لبني أمية على منابر سجلماسة ، منذ تأسيس دولتهم في الأندلس ، وكان ذلك سنة 367هـ/977م ، وكتب خزرون ابن فلفل بعد ذلك الى العاهل الأندلسي ، يخبره بما تم له من إنتصار على بني مدرار ، وبعث له برأس « المعتز بالله » ، فنسب ذلك الى المنصور بن أبي عامر وتيمن لحجابته ، فكافأ خزرون على ذلك ، وعقد له على مدينة سجلماسة (3) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 16 ـ ابن خلدون : العبر ، ج7 ص 77

(2) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6 ص 279

(3) مفاخر البربر ، ص 17/16 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 231/230 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ص 273 وج 7 ص 40 .

وعلى أثر استلاء مغراوة على سجلماسة ، زحف بلكين بن زيري صاحب أفريقية ، وظهير الدولة الفاطمية بها ، الى المغرب الأقصى ، زحفته المشهورة المشار اليها سابقا . وأستطاع بلكين أن يجفل زناتة من مضاربها ، ويتعقب فلولها الى مدينة « سبتة » ، فاجتاز أمراؤها البحر الى المنصور بن أبي عامر صارخين مستغيثين ، فلم يتأخر عنهم ، وأعد لبلكين بن زيري بظاهر « سبتة » جيشا كبيرا من المغاربة والأندلسيين ، إذ كان المنصور قد توجه الى الجزيرة الخضراء عندما جاءته صرخات الإستغاثة ، وسيّر جيشه بقيادة جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي الى سبتة ، بعد أن زوده بالأموال اللازمة لتغطية نفقات الحرب ، وبقي هو في الجزيرة الخضراء ، يشرف بنفسه على الامدادات ، ويترقب الوضع في المغرب من قرب وعن كثب (1) .

ولما أشرف بلكين على الجيش الأندلسي، من أعالي الجبال المطلة على المدينة، ورأى منعتها وحصانتها، وكثرة جيشها وسرعة امداداتها ، أدرك بأنه يصعب عليه فتحها عن طريق البر ، ولا يمكن ذلك الا بواسطة المراكب بالبحر ، فلم يقبل أن يزج بنفسه وجيشه ، في عملية انتحارية كهذه ، فحول وجهه منها وقال لأصحابه : « انما سبتة حيّة ولت ذنبها حذاءنا ، وفغرت فاها نحونا » وأنصرف نحو الجنوب (2) .

أما المنصور بن أبي عامر ، فقد أمر جعفر بن علي بالعودة إليه بقواته الأندلسية ، واستعمل على مدينة سبتة ، أحد أقاربه مخلد بن محمد بن زكريا التميمي المعروف بابن برطال ثم قفل عائدا الى قرطبة (3) .

عودة الحسن بن جنون الى بلاد المغرب وثورته على المنصور :

لم يلبث المنصور بن أبي عامر أن تصدى بكل حزم لهجوم آخر، تعرض له حلفاؤه في المغرب الأقصى ، لا يقل خطورة عن الأول . لكن هذه المرة لم يكن الهجوم من طرف صنهاجة ، وإنما كان من طرف الأمير الأدريسي « الحسن بن جنون » ، الذي كان مقيما في بلاط الفواطم بالقاهرة منذ عام 365 هـ/975 م .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 17 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 41 ، 59

(2) مفاخر البربر ، ص 17 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 41 ـ النويرى نهاية الارب ، ج 22 ورقة 140

(3) مفاخر البربر ، ص 18 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 41

ويبدو أنه خلال المدة التي قضاها في بلاط القاهرة،كان العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلسي، يحرضانه على العودة الى شمال افريقية،لأحياء الدولة الإدريسية من جديد حتى يتخلصا من نفقاته الباهضة،التي أثقلت الخزانة مدة ثماني سنوات (1) . وصادفت الفكرة هوى في نفس الحسن بن جنون فتحمس للأمر ، عند ذلك كتب له العزيز بالله بعهده على المغرب،وأمر عامله بإفريقية بلكين بن زيري ، أن يقويه بالجيوش والأموال ، فسار الحسن الى بلكين فأمده بجيش من ثلاثة آلاف من صنهاجة ، ولما انتهى بهم الى المغرب،سارعت الى نصرته قبيلة بني يفرن بزعامة يدو بن يعلى بن محمد وأخيه زيري وإبن عمه ابي يداس وعدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته (2) .

وعندما وصل خبرهما الى المنصور،أنفذ إليه ابن عمه عمرا بن عبد الله المعروف بعسكلاجة،على رأس جيش كثيف سنة 375 هـ /985 م ، وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره بمحاربة الحسن بن جنون ، فعبر « عسكلاجة » الى مدينة سبتة ، فانضم إليه آل خزر المغراويون،وهم محمد بن الخير ، وخزرون بن فلفل ومقاتل وزيرى ابنا عطية وسائر مغراوة ثم وجه المنصور تعزيزات عسكرية أخرى،لتعضيد إبن عمه في المغرب ، بقيادة كل من ابنه عبد الملك ومحمد بن أحمد بن جابر وصهره،الوزير عبد الرحمن بن محمد التجيبي وغيرهم من وجوه القواد الأندلسيين ، وظل هو بالجزيرة الخضراء،التي جعل منها مقرا لعملياته الحربية ، يشرف منها على المعارك ويدير دفتها منها كعادته (3) .

انضمت هذه الامدادات العسكرية،الى جيوش الوزير إبن الحكم عمرو بن عبد الله وسارت نحو الثائر الادريسي ، فاحاطت به وطوقته ، وعند ذلك لم يجد الحسن بن جنون بدا من الاستسلام،وطلب الامان لنفسه ولأهله على أن يسير الى الأندلس كمثل حالته الأولى ، فأمنه « عسكلاجة » ، واشخصه الى الأندلس وكتب لإبن عمه المنصور يخبره بذلك ، لكن المنصور لم يمض أمان ابن عمه،وأنفذ إليه من قتله في الطريق،وأتاه برأسه في جمادى الأولى سنة 375 هـ /985 م ، لكثرة فساده ، ونكث عهوده (4) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 19

(2) مفاخر البربر ، ص 19 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 41 ، 60 ـ روض القرطاس ، ص 62 .

(3) مفاخر البربر ، ص 19 ـ 20 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 41

(4) مفاخر البربر ، ص 20 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 2 ص 281 ـ ابن الخطيب ، القسم الثالث ص 224 ، ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 41 ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 63 ـ السلاوى : الاستقصا ، ص 89 .

وتشير بعض المصادر الى أن المنصور بن أبي عامر ، أمر بإخراج الادارسة من الأندلس والمغرب على أثر هذه الثورة ، فتفرقوا بين القبائل المغربية ، واضطروا خوفا من جنود المنصور، أن يتخلوا عن نسبهم العلوي ، وأنهارت بذلك دعوة الإدارسة بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم وسكنت ريحهم (1) .

وقد أثار قرار المنصور أستياء الادارسة فأخذوا يعرضون به في أشعارهم ، لانها هي الوسيلة الوحيدة ، التي بقيت لديهم يتنفسون بها ، عن سخطهم الشديد على المنصور ابن أبي عامر ، وحسبي أن أذكر هنا الأبيات التي نظمها الشاعر الادريسي ، ابراهيم بن ادريس يهجوفيها المنصور، ويحرض عليه بني أمية في الأندلس :

فيما أرى عجب لمن يتعجب ... جعلت مصيبتنا وضاق المذهب
إني لأكذب مقلتي فيما أرى ... حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيا من أمية واحد ... ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب
أبني أمية أين أقمار الدجى ... منكم وما لوجودها تتغيب (2)

استدعى المنصور بن أبي عامرعامله « عسكلاجة » ، من المغرب ، وولي مكانه أحد ثقافة ، الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي سنة 376هـ/986م ، ومنحه السلطة المطلقة ، في تدبير شؤون الأعمال ، المنصورية تحت النفوذ الأموي ، في العدوة المغربية وأطلق يده ، في الأموال وأمده بالعساكر ، وأمره أن يعمل على استمالة القبائل المغربية ، والإحسان اليها ، ولا سيما منها قبيلة مغراوة وزعيميها مقاتل وزيري ابني عطية لبلائهما الحسن ، في سبيل اخماد ثورة « الحسن بن جنون » الأخيرة ، ولا نحياشهما لبني أمية وصدق طاعتهما (3) .

اتساع دائرة النفوذ الأموي في بلاد المغرب :

ظل الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود ، في ولايته يسوس المغرب ويضبط

(1) مفاخر البربر ، ص 20 ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 63
(2). مفاخر البربر ، ص 21 ـ ابن عذارى : البيان ج 2 ص 282
(3) ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 61

أموره ، حتى سقط قتيلا في احدى المعارك العنيفة مع يدو بن يعلي اليفرني ، فعهد المنصور بن أبي عامر بولاية المغرب ، إلى أحد أبنائها الأفذاذ ، وهو الزعيم المغراوي زيري ، الذي أنفرد برئاسة مغراوة ، بعد مهلك أخيه مقاتل بن عطية سنة 378 هـ / 988 م ، وحرضه على مقاتله بني يفرن ، وازالة شوكتهم وأوكل إليه أيضا ، محاربة بني زيري الصناهجة أصحاب افريقية ، ومن تبعهم من أولياء الشيعة الفواطم ، بالديار المغـــربيـة (1) .

والظاهر أن جهود المنصور بن أبي عامر ، في تطبيق سياسته الإفريقية قد كللت بالنجاح ، إذ كان هو رجل التوسع الأموي ، وأشدهم فاعلية في هذا المضمار في ذلك الوقت ، ففي ظل حكمه توصلت الدولة الأموية الى قمة مجدها ، في الغرب الاسلامي . وقد أحسن المنصور التصرف باستمالة آل خزر المغراويين الزناتيين ، بزعامة زيري بن عطية وتوليته بلاد المغرب ، لأن مغراوة يومئذ كانت فيما يبدو أقوى القبائل المغربية وأجدرها لحكم المغرب ، ودليل ذلك أن زيري بن عطية ، استطاع أن يجمع كلمة شعبه ، ويبسط سلطانه على معظم أعمال المغرب ، بعد أن أزاح قبيلة مكناسة من مضاربها وأعمالها في شمال وجنوب المغرب الأقصى ، حتى مدينة سجلماسة (2) .

وبفضل هذه السياسة ، التي انتهجها المنصور مع المغارية بلغت الدعوة الأموية ، في عهده أوج عظمتها ، وأقصى اتساعها ، بحيث لم تعهده من قبل إذ أمتدت من اعمال الزاب وتاهرت وتلمسان شرقا ، الى مدينة سجلماسة جنوبا (3) . ومما زاد في تدعيم هذا النفوذ الأموي في المغرب ، انضمام الزعيم الصنهاجي ، أبو البهار بن مناد ، بأعماله الى طاعة بني أمية في الأندلس ، وخلعه لطاعة العبيديين ودعوتهم ، وكان أبو البهار قد خالف إبن أخيه ، المنصور بن بلكين بن زيري صاحب القيروان وافريقية ، واستولى على بعض أعمال المغرب الأوسـط ، التـابعـة للـدولة الصنهاجية مثل : الزاب والونشريس وتاهرت وشلف وتلمسان ، وقطع عنها دعوة الفواطم ، وخطب لهشام والمنصور على منابرها سنة 379 هـ / 989 م (4) .

---

(1) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ 7 ص 60

(2) مفاخر البربر ، ص 17/16 ـ ابن عذارى : البيان ، جـ 1 ص 231/230 ابن خلدون : العبر ، جـ 6 ص 273 جـ 7 ص 40 .

(3) مفاخر البربر ، ص 16 ـ 24 ـ ابن خلدون : العبر ، جـ 7 ص 66 جـ 6 ص 321

(4) مفاخر البربر ، ص 24 ـ ابن عذارى : البيان ، جـ 1 ص 244 ـ ابن خلدون : العبر ، جـ 7 ص 630 .

ولم يلبث أن اقتفى أثره في ذلك،صهره خلوف بن أبي بكر صاحب « تاهرت » ، وهو أكبر قواد الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأوسط ، ثم حذا حذوهما أخوه عطية بن أبي بكر،فكتب أبو البهار الى المنصور بن أبي عامر يسأله،الدخول في طاعته ، وطلب منه أن يكتب له الى زيري بن عطية المغراوي،صاحب فاس أن يكون عنده (1) .

لكن المنصور فيما يبدو كان يشك في ولائه واخلاصه ، لذلك رد عليه بكتاب ، يتأكد من اخلاص نيته قائلا له : « ان كنت على نية فيما وصفته عن نفسك ، فارسل الي ابنك يكون رهينة عندي ، وأفعل معك ما أحببته » (2) .

فارسل إليه أبو البهار ابنه في مركب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الدابة،لكن قدر لهذا المركب ان يصاب بالعطب في،وسط البحر،فغرق وغرق معه جميع من كان عليه (3) ، وتكررت المراسلات بينهما،الى ان تأكد المنصور من صدق نيته وحسن طاعته،عندما أرسل له أبو البهار أبنه الثاني رهينة ، عند ذلك بعث المنصور له والى صهره خلوف هدايا وأمتعة كثيرة وأموالا جزلة ليتقويا بها (4) .

والظاهر أن أبا البهار أراد أن يدعم صلته بالمنصور،ويؤكد طاعته فانفذ إليه وفدا برئاسة ابن أخيه،فارس صنهاجة أبي بكر بن حبوس بن زيري بن مناد في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه ، فوافوا قرطبة سنة 381 هـ/991 م ، فاستقبلهم المنصور وأكرم مثواهم، وأنزلهم أحسن منزلة ثم أوصل إليه رئيسهم أبا بكر ، وخلع عليه وعلى جميع أعضاء الوفد ، وغمرهم بصلاته وأعادهم الى بلادهم مكرمين ، كما وجه معهم الى أبي البهار،مبلغا من المال يقدر بخمسة وعشرين ألف دينار دراهم وهدايا عبارة عن خمسمائة قطعة من صنوف ثياب الخز وغيره وحلية وآنية والطاف تقدر قيمتها بنحو عشرة آلاف دينار تكريما له ، ودعاه الى مظاهرة حليفه زيري بن عطية،ومؤازرته على يدو بن يعلى اليفرني،وقسم بينهما أعمال المغرب (5) .

---

(1) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ص 244

(2) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ص 244

(3) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(4) مفاخر البربر ، ص 24 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 63 ، ج 6 ص 321 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ص 245 .

(5) مفاخر البربر ، ص 25 ـ ويذكر ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 64 ان الهدية تقدر بنحو عشرة آلاف درهم ، بدلا من دينار.

غير أن ولاء خلوف بن أبي بكر ، وأخيه عطية لبني أمية لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما خلع طاعة المنصور بن أبي عامر ، وعاد الى الدعوة الفاطمية ، فأمر المنصور حليفه زيري بن عطية ، بتأديب خلوف على ذلك ، فاسرع اليه الزعيم المغراوي واستطاع أن ينزل به الهزيمة ، وقتله مع جملة من أصحابه ، وأن يستولى على عسكره ، وأن يعيدهم الى طاعة المروانية ، ولم ينج منهم الا عطية ، مع قليل من اتباعه حيث فر شريدا الى الصحراء ، وكان ذلك سنة 381 هـ / 991 م .

ومنذ ذلك الوقت ، بدأ الخلاف بين أبي البهار وزيري بن عطية ، لأن الأول تقاعس عن مساعدة الأخير ، في حربه ضد خلوف وتظاهر بالمرض ، ولعل ذلك للوصلة التي كانت بينهما حسب قول إبن خلدون (1) ، وكتب الزعيم المغراوي الى المنصور ، يخبره بما انتهى إليه خلوف بن أبي بكر ، فسر الحاجب بذلك ، وأمر بقراءة الخبر على المنابر (2) .

ويبدو أنه على أثر هذه المعركة ، عاد زيري بن عطية الى عاصمته ، وتقدم نحو عدوة الأندلسيين ، التي أحتلها يدو بن على اليفرني اثناء غيابه ، فحاصره زيري ، ثم أقتحم أسوارها ، والتحم معه في معركة دامية ، هلك فيها الكثير من الطرفين وأخيرا كانت الدائرة على بني يفرن ، فقتل زعيمهم يدوواحتز زيري رأسه وبعث به الى المنصور ، مع كتاب الفتح ، ففرح بهذا النبأ ، وانفد إليه كثيرا من الخلع والصلات (3) .

وقد حرص الزعيم المغراوي زيري بن عطية ، على اظهار طاعته وولائه ، لبني أمية في الأندلس ، بالدعاء لهشام والمنصور على منابر أعماله ، وما يخوضه من حروب في سبيل نشر دعوتهم في المغرب ، وبما يتحفهم من هدايا نفيسة ، مما جعل المنصور بن أبي عامر يثق به ، ويرى المؤرخون أن المنصور استدعا زيري بن عطية لزيارة قرطبة والنزول عنده ، حتى يقربه منه ويكرم مثواه ، ويزيد في عطائه ، ويغريه بذلك على بني يفرن (4).

---

(1) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 64 ـ مفاخر البربر ، ص 25

(2) مفاخر البربر ، ص 25 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 64

(3) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ص 165 ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 70 ـ السلاوى : الاستقصا ، ج 1 ص 92 وقيل ان يدو فر بعد هزيمته أمام زيري ، وتعلق بالصحراء وهناك ، لقى حتفه على يد أحد اقرباته ـ انظر : البربر ، ص 25 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 64 .

(4) مفاخر البربر ، ص 22 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 64 .

فعبر زيري بن عطية المضيق ، سنة 381 هـ /991 م ، الى قرطبة يحمل معه هدية قيمة ، تشتمل على طيور جميلة ، لها أصوات بديعة ، ووحوش كاسرة محمولة ، في أقفاصها الحديدية ، كالاسود والنمور ، فضلا عن الثمور المغربية المشهورة بجودتها وكبر حجمها ، واجاز معه نحو ستمائة من أتباعه ، ما بين فارس وراجل (1) .

وقد احتفل المنصور بوصوله احتفالا عظيما ، حيث برز للقائه بالجيوش والعُدة واصطفت لرؤيته الخاصة والعامة ، وأنزله مع حاشيته بقصر جعفر بن عثمان المصحفي ، وغمره بالمال والخلع والصلات ، ومنحه لقب الوزارة وجدد له عهده على المغرب ، وثبت رجاله في ديوانه ، وقدم له هدية تضاهي هديته ، عبارة عن خيل وسلاح كثير ، وأموال وكسى والطاف فاخرة ، وصرفه الى اعماله (2) .

ثم تفاقم الخلاف بين الزعيمين المغربين ، زيري بن عطية المغراوي ، وابي البهار الصنهاجي ، مما أدّى بهما إلى الاصطدام المسلح ، فلحقت الهزيمة بأبي البهار ، وفر الى مدينة « سبتة » ، يزعم العبور الى الأندلس ، ولما رأى جيش المنصور بقيادة كاتبه عيسى بن سعيد ، الذي أرسله لمعاينة الخلاف وأحكام أمر أبي البهار ، تظاهر بالطاعة وحاد عن لقائه ، ثم صعد الى قلعة جراوة ، واستقر بها (3) ، ومن هناك أخذ يراسل ابن أخيه المنصور بن بلكين ، صاحب افريقية ، حتى صلح ما كان بينهما ، ورحب هذا الأخير بعودته الى قومه وأعماله ، فخلع أبو البهار بذلك ، طاعة بني أمية في الأندلس ، وعاد الى الدعوة الفاطمية ، عند ذلك جمع المنصور بن أبي عامر ، سائر أعمال المغرب في يد زيري بن عطية ، وعهد إليه بمناجزة الصنهاجي المنشق ، فلم يتأخر الزعيم المغراوي ، وتقدم بجيشه الزناتي الكبير يكتسح أعماله في المغرب الأوسط واستطاع ان يستولى على تلمسان ، ووهران وشلف ، وغيرها من المناطق ، التي كانت تحت السيطرة

---

(1) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 61 ـ ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص 69 ـ السلاوى : المصدر السابق ، ج 1 ص 91 ، وقد أختلف المؤرخون في تحديد السنة التي أبحر فيها زيري الى الأندلس ، لزيارة المنصور بحيث ذكروا سنة 380 هـ (مفاخر البربر ص 22) ، وسنة 381 هـ (ابن خلدون ج 7 ص 61) ، و379 هـ (ابن عذارى ج 1 ص 252) ، و382 هـ (روض القرطاس ص 69) ، ويبدوان زيري بن عطية ، قام بأكثر من زيارة الى قرطبة ، لهذا اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها .

(2) مفاخر البربر ، ص 22 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 62 ـ روض القرطاس ، ص 69 السلاوى ، ص 91 .

(3) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 65 ، ويذكرها صاحب كتاب مفاخر البربر ، بإسم جارت (ص 26).

الصنهاجية ، وضمها الى أعماله ، فاتسع بذلك نفوذه ، وقويت شوكته ، وأصبح يحكم ما بين اقليم الزاب بالمغرب الأوسط ، الى السوس الأقصى ، وكان ذلك سنة 383 هـ / 993 م (1) .

وهكذا بلغ النفوذ الأموي ، في بلاد المغرب عصره الذهبي ، على يد زيري بن عطية المغراوي الزناتي ، إذ دخلت الدعوة الأموية الى منابر جديدة في أقليم الزاب ، وشلف والونشريس وتلمسان ووهران وتاهرت فضلا عن المغرب الأقصى ، الشمالي والجنوبي ، حتى سجلماسة والسوس الأقصى .

وأنفذ زيري بن عطية بهذه المناسبة ، رسوله الى قرطبة يحمل معه الى المنصور بن أبي عامر ، هدية نفيسة ، قدمت له في حفل بهيج ، فكان ما ظهر منها مائتا فرس ، من عتاق الخيل ، وعشرون فرسا وخمسون جملا ، من المهاري السَّبق وألف درقة من جلود اللمط ، واحمال كثيرة من قسى الزان ، وأصناف أخرى من الوحوش الصحراوية الكاسرة ، وغير ذلك من الالطاف والتحف فيها الطيور الجميلة ، ذات الصوت البديع ، وزرافة حرص زيري على وصولها الى قرطبة حية لكنها نفقت في الطريق ، فجيء بجلدها محشوا ، وكثيرا من الثياب الصوفية الرفيعة ، والثمور الجيدة ، فعظم سرور المنصور وأجزل المكافأة لزيري بن عطية عليها ، وكان ذلك ، سنة 384 هـ (2) .

ولما اتسعت أعمال زيري بن عطية في البلاد المغربية ، وكانت مدينة « فاس » ، بموقعها في الطرف الغربي ، للمغرب الأقصى ، قد أصبحت لا تصلح مقرا دائما له ، لتسيير شؤون ولايته الشاسعة في المغربين الأوسط والأقصى ، فقام بإختيار مكان يناسب هذه الأعمال ، ويتوسطها بين ظهراني قبيلة زناتة ، وأختط فيه مدينة « وجدة » ، سنة 384 هـ / 994 م ، (على الحدود الجزائرية المراكشية حاليا) ، وابتنى بها قصبة وقصرا ، وأحاطها بأسوار ضخمة وسكنها بأهله وحاشيته ، ونقل اليها حشمه وعساكره ، وجعل منها عاصمة له (3) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 26 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 246 ـ 247 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 22 روض القرطاس ، ص 69 ـ السلاوى : الاستقصا ، ص 91 .

(2) مفاخر البربر ، ص 27 ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 66 روض القرطاس ، ص 69 ـ السلاوى ص 91 ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثاني ص 157 .

(3) ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 66 ـ روض القرطاس ، ص 70 ـ السلاوى الاستقصا ، ص 92 .

وكان زيري بن عطية قد غرس من قبل « رياض القرطاس » بنواحي مدينة فاس ، أثناء فترة إقامته بها ، حتى صار يعرف بالقرطاس (1) .

ثورة زيري بن عطية المغراوي على المنصور :

غير أن هذه العلاقات الطيبة بين الزعيم المغراوي والحاجب الأندلسي ، التي دامت نحو العشر سنوات ، لم تلبث أن تغيرت فجأة عقب الزيارة الأخيرة ، لزيري بن عطية الى الأندلس ، وقد ذكرت المصادر العربية ، روايات مختلفة عن أسباب الخلاف الذي وقع بينهما ، ومن بين هذه الأسباب : ان زيري بن عطية عندما رجع الى بلاده ، وأستوت قدماه على أرض طنجة تسم وخاطب وطنه قائلا : « الآن علمت أنك لي » (2) . وهذه العبارة فيما يبدو إن دلت على شيء ، إنما تدل على ما كان يخالج قرارة نفس الزعيم المغربي ، في الاستقلال ببلاده والانفراد بحكمه .

ومنها احتقاره ، للقب الوزارة ، الذي منحه أياه المنصور بن أبي عامر ، لدرجة أنه عندما ناداه أحد رجاله باسم الوزير ، صرخ في وجهه قائلا له : « وزير من يالكع ، لا والله الا أمير بن أمير ، واعجبا من ابن أبي عامر وخرقته ، والله لو كان بالاندلس رجل ما تركه على حاله وأن له منا ليوما (3) والله لقد تأجَّرني فيما أهديت إليه حظا للقيم ، ثم غالطني بما له تبتيتا للكرم ، الا أن يحتسب بثمن الوزارة التي حظني بها عن رتبتي » (4) .

ومنها استصغاره للعطاء ، الذي كان يجريه المنصور له كل سنة ، وانكاره على المنصور بن أبي عامر ، في الاستبداد بالحكم وحجرة على الخليفة هشام ، ويبين ذلك الشعار ، الذي كان يردده جنود زيري في المعارك ، التي دارت بينهم وبين الجيش الأندلسي ، وهو « هشام يا منصور » ، بينما كان شعار جنود المنصور ، الذي كانوا يردُّون به على جيش زناتة « يا منصور » ، وهناك فارق له مغزاه بين الشعارين (5) .

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 7 ص 128 ـ مفاخر البربر ، ص 37 .

(2) مفاخر البربر ، ص 22

(3) ذكر في رواية أخرى « وأن له منا ليوثا » أنظر كتاب مفاخر البربر ، ص 22

(4) مفاخر البربر : ص 22 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 62 ـ روض القرطاس ، ص 7 .

(5) مفاخر البربر ، ص 29 ـ د . أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 256 ـ د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص 82 مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1957 م .

ويبدو أن العلاقة بين زيري والمنصور ، وصلت الى درجة كبيرة من الفتور ، باكتشاف هذا الأخير ، المؤامرة التي كانت تديرها السيدة « صبح » ، بالاشتراك مع زيري بن عطية ضده ، بسبب استئثار المنصور بالحكم ، وحجره على ابنها الخليفة هشام ، لذلك اتهمته باغتصاب السلطان بواسطة دعاتها ، واعوانها المخلصين لها ، وظلت تسعى جاهدة للاطاحة به ،وتضاعف العمل من أجل حماية ابنها ، واعادة زمام الأمور له .

وعندما لم تتمكن من إيجاد نصير لها ، من القواد ورجال الدولة في قرطبة ، والأندلس قاطبة ، لأن عيون المنصور ساهرة لاتغفل ، وان القواد والجند خاضعين له خضوعا تاما ، حينئذ علمت بأنه لا يمكن لها القضاء عليه ، الا عن طريق قوة خارجية . لذلك حولت وجهها ، شطر المغرب الى زيري بن عطية المغراوي ، الذي كان يحنق على المنصور وينقم عليه ، فأخذت تتصل به ، وتبعث له برسلها وتدفع به الى مناوأة هذا الدكتاتور الاحدب ، وتحرضه لحشد الحشود والاجتياز الى الأندلس ، لتحرير ابنها من استبداد المنصور وتخليصه من قبضته ، وخولت لنفسها في سبيل ذلك ، ان تطلق يدها في أموال بيت المال . وأخذت منه الكثير . فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية . أنها حاولت إرسال بعض الأموال ، من بيت المال على شكل هدايا داخل « جرار » ، لكن المنصور بن أبي عامر بفضل يقظته وكثرة جواسيسه استطاع أن يكتشف هذه المؤامرة ، ويستولى على الأموال . ولكي يضع حدا لنشاط السيدة صبح ، واعوانها في القصر ، قام على الفور بنقل بيت المال من القصر الخليفي في مدينة الزهراء ، الى مدينته الجديدة الزاهرة (1) .

وكيفما كان الحال ، فان كثرة الروايات وتعددها ، في أسباب الخلاف الذي نشب بين المنصور ، بن أبي عامر وزيري بن عطية المغراوي . فمما لا ريب فيه هو أن الزعيم المغراوي ، كان يضمر في قرارة نفسه الاستقلال ببلاده ، وأنه أتخذ من هذه الأسباب والمسوغات ، ومن تمسكه بالدعوة الأموية ، ذريعة لتحقيق هدفه المنشود ، وهو السيادة الوطنية ، تحت الراية الزناتية (2) .

أخذ زيري بن عطية يشهر بسياسة المنصور الاستبدادية ، ويعرض به ويظهر استياءه منه ، لاستحواذه على الخلافة دون صاحبها الشرعي ، هشام المؤيد الأموي ،

---

(1) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الرابع القسم الأول ص 52 ـ 54 .

(2) أنظر كتاب د . أحمد مختار العبادى : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 256 .

ثم أعلن ثورته ، سنة 386 هـ / 996 م ، بقطع ذكر إسم المنصور في الخطبة على منابر أعماله ، واقتصر على ذكر اسم الخليفة هشام فقط ، وطرد عماله من جميع البلاد المغربية ، ما عادا أولئك الذين يتولون ثغور المغرب الأقصى البحرية المطلة على المضيق ، مثل : ثغر مليلة وسبتة وطنجة ، ورد عليه الحاجب المنصور بن أبي عامر ، بأن عزله من خطة الوزارة ، وقطع عليه مرتبها الذي كان يجريه عليه كل سنة ، ومحا اسمه من ديوانه ، وتبرأ منه واعتبره خارجا عاصيا عليه (1) .

والظاهر أن المنصور بن أبي عامر ، حاول أن يقنع الزعيم المغراوي بالتخلي عن قراره بواسطة كاتبه الخاص عيسى بن سعيد اليحصبي ، الذي أرسله إليه في مجموعة من قواته الأندلسية ، وكلفه بالنظر في أمره واستصلاح شأنه . لكن زيري لم يبال به ، واستمر في ثورته على المنصور ، حتى استعصى أمره على عيسى بن سعيد ، عند ذلك فضل ، ان يبقى في المغرب الى نهاية سنة 386 هـ /996 م . علّه يستطيع استمالة بعض أعوان الزعيم الثائر ، وقد تحقق له ذلك عندما انضم إليه أحد قواد زيري بن عطية البارزين ، محمد بن محمود المعروف بابن البقال صاحب قلعة « النسر » ، فاجازه عيسى الى قرطبة ، حيث استقبله المنصور وقربه منه ، وأحسن إليه وسماه بالناصح (2) .

عبور القوات الأندلسية الى العدوة المغربية لاخضاع زيري بن عطية :

ثم جهز المنصور جيشا كبيرا بقيادة مملوكه « واضح » الصقلبي ، صاحب مدينة « سالم » ، وزوده بالأموال والسلاح والكسى ، وأصحبه بمجموعة أخرى من القواد الأندلسيين ، وبعض الأمراء المغاربة،الموالين للمنصور الحانقين على زيري بن عطية . ولا سيما امراء مكناسة وبني يفرن ، الذين طردهم زيري من أعمالهم ، أمثال : أبو نوئخت بن عبد الله بن بكار اليفرني ، واسماعيل بن البوري ، ومحمد بن عبد الله بن مدين المكناسيين ، وخزرون بن محمد بن ازداجة ، وغيرهم من الأمراء المغاربة ، الذين كان المنصور محتفظا بهم في قرطبة ، لمثل هذه الظروف (3) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 28 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 66 ـ روض القرطاس ، ص 70 ـ 71 ، السلاوي : ص 92 ـ 93 .

(2) مفاخر البربر ، ص 27 ـ 28 .

(3) مفاخر البربر ، ص 29 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 67 ـ روض القرطاس ، ص 71 .

عبر « واضح » المضيق بقواته ، ونزل بمدينة طنجة ، سنة 387 هـ /997 م ، وهناك انضمت إليه كل من قبيلتي ، غمارة و« صنهاجة » ، ثم تقدم يريد مدينة «فاس» ، لكن زيري بن عطية ، كان له بالمرصاد ، حيث أسرع إليه والتقى به في وادي « رادب » ، جنوبي طنجة ، وظل يقاتله نحو ثلاثة أشهر ، حتى أنزل به وبجيشه الأندلسي الهزيمة ، ففر واضح الى طنجة ، مستغيثا بمولاه المنصور ، يطلب المزيد من المدد (1) .

وبهذه الهزيمة الثقيلة ، اضطر المنصور بن أبي عامر ، الى الخروج بجميع الجيوش الأندلسية ، وقوادها الى الجزيرة الخضراء كعادته ، وكان الحاجب المنصور قد ابتنى له القصور والمنازل ، على طول الطريق الرابط ما بين مدينة قرطبة والجزيرة الخضراء ، على غرار ما فعله في الطرق الرابطة أيضا بين عاصمته والثغور الأندلسية الشمالية (2) .

ثم أسند المنصور قيادة هذه الجيوش الى إبنه عبد الملك المظفر، بدلا من فتاه واضح ، وأجازها الى مدينة سبتة ، ومكث هوكعادته في الجزيرة الخضراء يراقب سير المعارك من هناك عن كثب ، ويقف على امداد ابنه بالاجناد والقواد (3) .

ولما بلغ زيري بن عطية عبور عبد الملك المظفر بهذه القوات الضخمة ، شعر بالخطر على نفسه ، فبعث الى جميع بطون زناتة يستنفرهم ، فاسرعت الى نصرته الوفود والقوات من جميع بلاد المغرب (4) .

هزيمة الزعيم المغراوي في معركة وادي « منى » :

فنهض بهم الزعيم المغراوي زيري ، والتقى الجيشان بوادي « منى » باحواز طنجة ، ودارت بينهما معارك شديدة ، سنة 388 هـ /998 م اختلط فيها الحابل بالنابل ، ظلت فيها الحرب متكافئة بين الفريقين ، الى أن لعبت الخيانة دورها ، ولا يستبعد أن يكون عبد الملك المظفر ، هو الذي حاك خيوطها من وراء الستار ، إذ قام بتحريض غلام أسود اسمه كافور بن سلام ، كان زيري بن عطية قد صرع أخاه من قبل .

---

(1) روض القرطاس ، ص 71 ـ السلاوى : الاستقصا ، ص 93 .

(2) مفاخر البربر ، ص 30 .

(3) ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 252 ـ 253

(4) روض القرطاس ، ص 71 ـ السلاوى : الاستقصا ، ص 93

فاغتنم هذا الغلام الفرصة وتسلل الى خيمة زيري ، وطعنه بطعنات غير قاتلة في رقبته ، وفر ناجيا بنفسه ، الى معسكر عبد الملك المظفر ، وبشره بقتله لزيري بن عطية ، وعندما تأكد المظفر من صحة الخبر ، شدَّد القتال وقوي الهجوم على جيوش زناتة ، وهم في حالة دهشة من جراء جروح أميرهم ، واستطاع أن يمزق صفوفهم ، ويهزم جموعهم ، ويستولي على ذخائرهم ، من المال والسلاح والخيل والابل وغيرها ، عند ذلك لم يجد اصحاب زيري بن عطية بدا من حمله والفرار به متخنا بجراحه ، وعرَّجوا على مدينة « فاس » حيث أخذوا أولاده وعياله وانصرفوا بهم الى الصحراء (1) .

أما عبد الملك المظفر بن المنصور ، فقد تابع فتحه للاقاليم المغربية حتى بسط سلطانه على المغرب الأقصى ، وما ولاه الى سجلماسة ، وتلمسان وتاهرت بالمغرب الأوسط (2) . فكتب الى أبيه يخبره بهذا الفتح ، فعظم سرور المنصور وتضرع لله شاكرا ، وبث الصدقات على الفقراء ، واعتق الموالى بهذه المناسبة ، وأمر بقراءة هذا الخبر على منبر جامع الزهراء بقرطبة وعلى منابر قواعد الأندلس كلها شرقا وغربا ، حتى أن الشعراء اشادوا بهذا اليوم ونوهوا في أشعارهم باهبات المنصور وكفاءته العسكرية ضد زيري بن عطية (3) .

ثم عهد المنصور لابنه عبد الملك بولاية المغرب ، فاصلح نواحيه ، وشد ثغوره ، وعين العمال على النواحي ، فولى محمد بن الحسن بن عبد الودود على تادلا ، واستعمل حميد بن يصل المكناسي على سجلماسة ، ثم قفل عائدا الى الأندلس بعد أن استخلف مكانه مملوك أبيه واضح سنة 389 هـ/999م (4).

---

(1) مفاخر البربر ، ص 33 ـ ابن خلدون : العبر ، جـ 7 ص 68 ـ روض القرطاس ، ص 71 ويذكر ابن عذارى ، ان الذي غدر به هو ابن عمه الخير بن مقاتل ، فطعنه برمح في قفاه وهرب ، انظر : البيان ، جـ 2 ص 282 .

(2) ابن عذارى : البيان ، جـ 1 ص 253

(3) مفاخر البربر ، ص 33 . ومن بين هؤلاء الشعراء الذين اشادوا بهذه المناسبة شاعر العصر ابن دراج القسطلي الذي قال :

لئن صديت الباب قوم بغيهم ... فسيف الهدى في راحيتك صقيل
فإن يحيى فيهم بغي جالوت جدهم ... فاحجار داود لديك مثول
أراقم تغري ناقع السم مالها ... بما حملت دون الغداة مقيل
اذا نفثت في زورزيري حماتها ... فويل له من ذكرها وأليل

ابن عذارى : المصدر السابق ، جـ 1 ص 253 ـ ابن خلدون : العبر جـ 7 ص 69 .

obeikandl.com

وأما زعيم مغراوة زيري بن عطية ، فإنه لما اندملت جراحه وتحسنت أحواله وصحته أخذ يجمع شمله فجيش الجيوش وكتب الكتائب من مختلف بطون زناتة ، وتقدم بهم نحو مضارب صنهاجة في المغرب الأوسط ، مغتنما في ذلك فرصة قيام شيوخ صنهاجة على حفيد أخيهم الأمير الجديد باديس بن المنصور ، وهو منشغل بقتال عامله على مدينة « طبنة » فلفول بن سعيد الزناتي ، واستطاع زيري بن عطية ان يتغلغل داخل الأراضي الصنهاجية وان ينزل بهم الهزائم الكثيرة فقد دخل مدينة المسيلة عاصمة اقليم الزاب ، وبلاد شلف ، ومدينة تاهرت وتنس وتلمسان ، وأقام على منابرها الدعاء للخليفة هشام المؤيد ، والمنصور إبن أبي عامر ، ثم زحف على مدينة « أشير » ، قاعدة ملوك صنهاجة ، وأناخ على بابها مدة طويلة محاصرا لها (1) .

وقد شجعه على ذلك أعمام باديس بن المنصور ، وزاوى بن زيري بن مناد ، وجلال وماكسن ، وغيرهم من أمراء صنهاجة الذين طلبوا الامان من زيري بن عطية ولجأوا إليه ، فارين من الأمير باديس صاحب افريقية .

وبعد أن تم لزيري هذا الفتح في المغرب الأوسط ، انفذ الى المنصوربن أبي عامر ، كلا من ثقته « دقاق الحاج » وقاضيه « فتوح الأزرق » ، سنة 389 هـ /999 م . يسترضيه ويخبره عن استعداده للدخول في طاعته من جديد ، واقامة الدعوة له مؤكدا له صحة طاعته وولائه وصدق انابته ، وطالبا منه اعادة العهد له بولاية المغرب . وقد اشترط زيري على نفسه ، ان يرسل ابنه وابن أخيه رهينة للمنصور ان هو اعاده الى ولاية المغرب ، واستأذنه في قدوم زاوي بن زيري الصنهاجي وأخيه جلال ، فأذن المنصور لهما بدخول الأندلس ، سنة 390 هـ /1000 م ، ولم يكترث لطلب أخيهما الثالث أبي البهارلسابق نكثه (2) .

والظاهر أن المنصور بن أبي عامر قد قبل التماسات زيري بن عطية ، وطلباته ، ورضى عما يقوم به من إقامة الدعاء له وللخليفة هشام في اعماله ، ومن منازلة صنهاجة ، الا أنه فيما يبدو لم يبعث له بعهده على ولاية المغرب ، لان المنصور ظل يُعين الولاة على البلاد المغربية من كبار رجال دولته ، الى أن توفي سنة 392 هـ /1002 م .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 38/35/34 ـ ابن خلدون : العبر ، جـ 7 ص 70 روض القرطاس ، ص 72 .

(2) مفاخر البربر ، ص 35 ـ ابن خلدون : العبر ، جـ 7 ص 70

ويتضح كذلك من خلال نص لصاحب كتاب مفاخر البربر ، الذي يقول : «... أقام الخطبة (يقصد زيري بن عطية) لابن أبي عامر وابنه ، فيما صار إليه من بلاد صنهاجة بعد دعائه للخليفة هشام ، فقبل ابن عامر ورضي ، وذلك في جمادي الأخير من هذه السنة (389 هـ / 999 م) » (1) .

ولم يزل زيري بن عطية يغير على أعمال صنهاجة ، وينزل بهم الهزيمة تلو الأخرى ، ويحاصر قاعدتهم « أشير » ، الى أن أشتدت علته وانتقض عليه جرحه من جديد فانصرف الى بني عمه ، وقضى نحبه هناك ، سنة 391 هـ / 1001 م (2) .

المعز بن زيري يصالح العامريين :

اجتمع آل خزر وكافة شيوخ مغراوة ، على مبايعة المعز بن زيري بن عطية ، زعيما لهم خلفا لأبيه والظاهر أن المعز هذا لم يكن راضيا عن السياسة التي انتهجها والده ، مع كل من الدولة الزيرية الصنهاجية ، والدولة العامرية ، بدليل أنه عندما تولى رئاسة مغراوة مباشرة لم يلتزم بانتهاج هذه السياسة ، وفضل عدم اتباعها ، بحيث انصرف عن محاربة صنهاجة ، واكتفى بما بين يديه من أعمال . وصالح المنصور بن أبي عامر ، ودخل في طاعته ، وأقام له الدعاء ولابنه عبد الملك ، عقب الدعاء للخليفة هشام المؤيد بالله ، ومازال المعز على ذلك حتى توفي المنصور بن أبي عامر واستمر كذلك مع خليفته عبد الملك المظفر ، الذي تولى الحجابة وشؤون الدولة بعد أبيه ، سنة 392 هـ / 1002 م (3) .

وهكذا أعادت الخلافة الأندلسية سيادتها من جديد على معالم أراضي المغربين الأوسط والأقصى ، إذ كان يمثلها على الاقليم الاول المعز بن زيري بن عطية المغراوي ، ويمثلها على الاقليم الثاني ، الولاة الذين كان المنصور بن أبي عامر يحرص على انتقائهم من بين كبار رجال الدولة ، أمثال : مملوكه واضح ، وعبيد الله ابن أخيه ، واسماعيل بن البوري المكناسي ، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي (4) .

---

(1) مفاخر البربر ، ص 34

(2) مفاخر البربر ، ص 32 ، 35 ، 36 ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 7 ص 70 .

(3) مفاخر البربر ، ص 39 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 70

(4) مفاخر البربر ، ص 36 ـ المصدر السابق ، ج 7 ص 69

واستمر الحاجب الجديد ، عبد الملك المظفر بن المنصور في تطبيق السياسة المغربية التي انتهجها والده من قبله ، وهي المحافظة على النفوذ الأموي في بلاد المغرب ، وضرورة مصانعة رؤساء القبائل المغربية .

.وعندما تأكد عبد الملك من اخلاص المعز بن زيري المغراوي ، للدعوة المروانية وولائه لها ، عقد له على ولاية المغرب كله ، ماعدا سجلماسة التي كان المملوك واضح قد أعادها الى أيدي « وانودين بن خزرون وابن عمه فلفول ابن سعيد » المغراويين مقابل مال يؤديانه كل سنة إلى حكومة قرطبة ، ورهينة من ابنائهما (1) .

وكذلك اشترط على المعز بن زيري رهينة ، فارسل إليه ولديه حمامة ومعنصر مع تقديم اتاوة سنوية من المال والخيل ، والسلاح والدرق ، وغير ذلك مما تدعوه الضرورة وتتطلبه الحاجة (2) .

وكتب له المظفر بن المنصور بعهد الولاية ، وبعث به مع وزيره وخاصته أبي محمد بن علي بن حدلم في ذى القعدة سنة 397 هـ /1007 م ، وقد رأيت أن انتخب بعض الفقرات من ظهير تعيينه على سبيل المثال لا الحصر : « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد : من الحاجب المظفر سيف دولة الامام الخليفة هشام المؤيد بالله ، أمير المؤمنين أطال الله بقاؤه ، عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الى كافة مدينتي « فاس » وكافة أهل المغرب اما بعد : ... ان المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع لدينا رسله وكتبه متنصلا من هنات رفعته اليها ضرورات ... وقد وعد من نفسه ، استشعار الطاعة ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة ، فوليناه ما قبلكم وعهدنا إليه ان يعمل بالعدل فيكم ، واشهدنا الله عليك بذلك ... وقد وجهنا ابا محمد بن علي بن احدلم وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا ، لياخذ ميثاقه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك ، وأمرناه باحضاركم ذلك واشراككم فيه فاتقوا بذلك ، واسكنوا إليه وليقضي القاضي أبو عبد الله اكرمه الله احكامه مشدودا ظهره بنا معقودا ، سلطانه بسلطاننا ولا تأخذه في الله لومة لائم فذلك ظننا به إذ وليناه ، وأملنا فيه إذ قلدناه والله المستعين وعليه التكلان .. » (3) .

---

(1) ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 254 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 79

(2) مفاخر البربر ، ص 39 ـ ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 253 أما ابن خلدون (ج 7 ص 70) وروض القرطاس (ص 73) والسلاوى (ص 95) فيذكرون ان الرهينة كانت لإبنه معنصر فقط .

(3) مفاخر البربر ، ص 40 ـ 41 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 7 ص 71 ـ 72 السلاوى : الاستقصا ، ج 1 ص 94 ـ 95 .

وبهذا العمل يكون الحاجب عبد الملك المظفر ، قد أعاد الثقة من جديد الى حلفاء الدولة الأموية التقليديين وهم آل خزر المغراويون ، وأن يكسب ولاء زناتة التي انتشرت الدعوة الأموية في المغرب على اكتافها منذ الرعيل الاول لامراء بني أمية في الأندلس ، واليها يرجع الفضل في ابقاء الدعاء للخليفة هشام على منابر المغرب ، ولكي يزيد من أصطناعهم ، قام عبد الملك بتجنيد واستخدام رجالهم في جيوشه ، مقتفيا في ذلك أثر أبيه المنصوربن أبي عامر .

وكما أن عبد الملك المظفر عوَّل على آل خزر المغراويين في ضبط أمور المغرب تحت السيادة الأموية ، فإنه أيضا اعتمد على بني زيري بن مناد الصنهاجيين ، الذين عبروا الى بلاد الأندلس ، واستقروا بنواحي غرناطة في عهد والده المنصور في تنفيذ مشاريعه الجهادية في الثغور الشمالية ، وقد أبلى بنوزيري بلاء حسنا في جهادهم ضد المسيحيين ، مما جعل المظفر بن المنصور يزداد ثقة بهم ، ويحسن اليهم ، ويقلدهم الوظائف العالية في دولته ، ويجعلهم في بطانته ، فاستماتوا في خدمته ، ولعبوا دورا بالغ الأهمية من أجل تثبيت أقدام العامريين في السلطة ، وفي ذلك يقول إبن خلدون : « واستغلظ أمر صنهاجة بالاندلس ، واستفحلت امارتهم ، وحملوا دولة المنصور ابن أبي عامر وولديه المظفر والناصر من بعده ، على كاهلهم » (1) .

الا أن عهد عبد الملك المظفر ، لم يدم أكثر من سبع سنوات حيث اصابته ذبحة صدرية مات على أثرها سنة 399 هـ /1009 م ، فتولى الحجابة وزمام الدولة من بعده أخوه عبد الرحمن الناصر بن المنصور ، المعروف باسم شنجول نسبة الى جده لامة شانجة Sancho Garces Abarca لأنه كان أشبه الناس به (2) .

ولما بلغ ذلك الى المعز بن زيري ظهير الدولة الأموية في بلاد المغرب ، وجه وفدا من فتيان بني عمه ، وجملة من شيوخ القبائل ، وبعض وجوه مدينة « فاس » لتهنئته وتجديد الولاء ، والطاعة له وبعث له معهم هدية قيمة ، تشتمل على احمال كثيرة من السلاح والدرق وعدد من الخيول وجملة من الأموال وبعض الطرف المغربية الجميلة

---

(1) ابن خلدون : العبر ، جـ 6 ص 367 ـ انظر أيضا : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ 7 ص 120 ، مذكرات الأمير عبد الله المسماه بكتاب التبيان نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف بمصر 1955 ـ ابن بسام الذخيرة ، المجلد الاول ، القسم الرابع ص 61 .

(2) ابن عذارى : البيان ، جـ 3 ص 41

فسربها عبد الرحمن ، وشكر للمعز ذلك وسرح إليه ولديه حمامة ومعنصرا ، بعد أن خلع عليهما ، وعلى الرسل الذين قدموا إليه وجدد له العهد على اعماله بالعدوة المغربية ، وبوصول حمامة ومعنصر المرتهنين الى أبيهما « بفاس » ، جمع المعز بن زيري نحوا من تسعمائة فرس ، وبعث بها الى قرطبة ، ولم تصل من المغرب الى الأندلس هدية أعظم منها ، حسب تعبير السلاوي (1) .

تجدر الإشارة هنا ، الى أن انتقال الدولة الفاطمية من افريقية والمغرب الى القاهرة ، وإبتعادهم عن بلاد الاندلس وأصحابها الأمويين ، لم يؤثر في الفكرة المعادية التي تراود عقول بني أمية في لأندلس نحوهم منذ زمن بعيد ، إذ يروي المؤرخون أنه قامت في سنة 395 هـ /1005 م ثورة سنية في « برقة » قام بها ثائر على الفاطميين يدعى الوليد بن هشام ، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل الملقب بأبي « ركوة » ، خرج من الأندلس متظاهراً بالتصرف ، واشتغل بتعليم الصبيان ثم زعم أن مسلمة بن عبد الملك بشر بخلافته (2) ، وعندما عظم أمره وقوي مركزه ، ضرب السكة وأجهر الدعوة للخليفة هشام المؤيد بالله ، وخطب باسمه على منابر برقة . وكان يلعن الحاكم بأمر الله الفاطمي وآبائه ، واستطاع ان يستولى على برقة ، حتى فزع منه صاحب مصر ، فعزم على الخروج من القاهرة الى الشام ، وبرز الى بلبيس بعساكره وأمواله ، الا أن خواصه اشاروا عليه بالعودة فعدل عن قراره ، ورجع الى القاهرة حيث أخذ يعد العدة للقاء أبي ركوة (3) .

وقد تمكن هذا الثائر السني الأموي ، ان ينزل بالفواطم سلسلة من الهزائم خلال سنة 397 هـ /1007 م ، ويطاردهم حتى اهرامات الجيزة . ولكنه انهزم أخيرا وأسر على يد القائد الفاطمي الفضل بن عبد الله ، الذي حرص على أخذه الى الحاكم بأمر الله حيا لينتقم منه ، فعرضه هذا الأخير في شوارع القاهرة عرضا مزريا ثم قتله وصلبه (4) .

---

(1) السلاوى : الاستقصا ، ص 95 ، وأنظر أيضا ابن عذارى : البيان ، ج 1 ص 254/253 الذي يذكر بأن عدد هذه الخيول نحوسبعمائة .

(2) المقرى : نفح الطيب ، ج 3 ص 411 ـ 412

(3) ابن تغرى بردى (جمال الدين) : النجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة ، ج 4 ص 212 القاهرة بدون تاريخ.

(4) ابن تغرى بردى المصدر السابق ، ج 4 ص 217 ـ ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ص 234 الى ص 237 .

ولا يستبعد أن تكون للعامريين ، يد في تحريك هذه الثورة في قلب الدولة الفاطمية (1) ، ولاسيما وأن المنصور بن أبي عامر كان يحلم قبل وفاته بمد سلطانه على بلاد المشرق ، وكثيرا ما عبر عن هذه المطامع بأبيات شعرية يقول فيها :

منع العين أن تذوق المنايا ... حبها ان ترى الصفا والمقاما
لي ديون بالشرق عند أناس ... قد أحلوا بالمشعرين الحراما
ان قضوها نالوا الامانى والا ... جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام ... يبلغ النيل خطوها والشآما (2)

وهكذا كادت ثورة أبي ركوة أن تحقق أحلام المنصور ، ولو بعد وفاته بقليل ولكنها أنتهت بالفشل ، شأنها في ذلك شأن المحاولات الكثيرة ، التي قام بها بنو أمية وأنصارهم ، للقضاء على الشيعة الفواطم ، وأسدل بذلك الستار على الصراع الحاد الذي ظل قائما بين الخلافتين ، الفاطمية ، الشيعية والأموية السنية مدة قرن من الزمن ، لأن كلا من بني أمية والفواطم دخلوا مرحلة جديدة لا يحسدون عليها وهي مرحلة الضعف والانحلال .

---

(1) د . محمود على مكي التشيع في الأندلس ، ص 29/28 .

(2) المقرى : نفح الطيب ، ج 1 ص 383 ـ راجع ايضا : كتاب الدكتور أحمد مختار العبادى : فسر تاريخ المغرب والأندلس،ص 258 .